تجلّيّاتُ النَّايِ
في الخطاب الصوفيّ
بين
عبد الغني النابلسيّ وجلال الدين الروميّ

د. أحمد عادل عبد المولى

أستاذ البلاغة والنقد الأدبي المساعد
بكلية اللغات والترجمة
جامعة مصر للعلوم والتكنولوجيا

ما حفل شعرنا العربي القديم بالرمزية في تجربة من تجاربه كما حفل به في التجربة الصوفيّة، فهي خالصة للرمزيّة في كل سياقاتها.

وتبتغي الدراسة كيفيّةَ إنتاج الدلالة الرمزية للناي في تجلياتها العرفانيّة عبر تحليل السياقات الدلاليّة للخطاب الصوفي بسماته التعبيريّة وخصائصه الأسلوبيّة، وربطها بأبعاد التجربة الصوفية في مقارنة بين شاعرين من أساطين الشعر الصوفي، هما: الشاعر الشيخ العلامة **عبد الغني النابلسيّ** ممثلاً عن الشعر العربيّ، وشاعر الصوفية الأكبر **جلال الدين الروميّ** ممثلاً عن الشعر الفارسيّ.

وكان اختيار النابلسي من حيث إنه أكثر الشعراء العرب تجليًّا لورود الناي في شعره، فقد احتفل به شعرُه أيّما احتفال، فهو القائل عنه:

كَـــمْ مِـــنْ حَقِيـــرٍ لَـــهُ سِـــرٌّ تَضَـــمَّنَهُ وَآيَـــــةٌ هِـــــيَ عِنْـــــدَ اللهِ مُعْتَبَـــــرَهْ
نَـــــايٌ تَلَقَّفَـــــتِ الأَلْبَـــــابُ نَغْمَتَـــــهُ مَـــعْ أَنَّـــهُ قَصَـــبٌ فِـــي هَيْئَـــةٍ حَقِـــرَهْ
كَمِثْـــلِ مُوسَـــى عَصَـــاهُ حِـــينَ أَرْسَـــلَهَا تَلَقَّفَـــتْ كُـــلَّ مَـــا جَـــاءَتْ بِـــهِ السَّـــحَرَهْ

وكانت المقارنة بين هذا التجلّي في شعره ومقدمة جلال الدين للمثنوي التي خلصت لأنشودة الناي، والتي شكلت ملمحًا رمزيًّا بارزًا شَغَفَ الدراسين به.

يقول جلال الدين في مقدمة أنشودة الناي:

« استمع للناي كيف يقصّ حكايته. إنه يشكو آلام الفراق.

(يقول):

"إنني منذ قُطعت من منبت الغاب، والناس رجالاً ونساءً يبكون لبكائي.

إنني أنشد صدرًا مزّقه الفراق؛ حتى أشرح له ألم الاشتياق.

فكل إنسان أقام بعيدًا عن أصله، يظلّ يبحث عن زمان وصله. »

وجاء اختيار «**الناي**» لما تحمله شفرته السيميولوجيّة عند الصوفية من رمز للإنسان في انقطاعه عن أصله العلوي، واشتياقه له.

ولمّا كانت التجربة الصوفيّة تجربة وجدانيّة معقدة ومتشابكة لما يطرأ على الذات من مواقف وأحوال ومقامات، كان لزامًا التعامل مع خطابها من خلال منهج يهتم باللغة وبما وراء اللغة، فلا يقف عند حدود ما تهبه مستوياتها اللغوية الصِّرْفَة (المعجميّة، والصرفية، والتركيبيّة) من دلالات

تشكّل خصائصها الأسلوبيّة وسماتها التعبيريّة، بل يتجاوز ذلك إلى ما وراء اللغة، بأدواتها السيميولوجيّة والرمزية؛ لذا جاءت الاستعانة بعلم الخطاب كاشفًا للداخل، وراصدًا للخارج معًا.

ودارت تجليات الناي العرفانيّة في ثلاثة مباحث، تناول كل مبحث سياقًا دلاليًّا للناي، وهي المباحث الآتية:

- **الناي والسماع:** وهو يتصل بما يصدر عن الناي وأثره، فهو سياق للخارج.
- **الناي والنفخ:** وهو يتعلّق بما يحدث في الناي، فهو سياق للداخل.
- **الناي والعشق والطبيعة:** وهو لما يحايثه من عوالم تجمع بين الداخل والخارج معًا.

ولعلّ في هذه المقارنة بين الشاعرَيْن على ما بينهما من تخالف زمنيّ ومكانيّ، ومن توافق صوفيّ؛ ما يضع أيدينا على أوجه الاتفاق والافتراق بين أدَبَيْن في معالجتهما لرمزيّة الناي.

أما المبحث الأول فهو بعنوان: **الناي والسماع**، وهو سياق يتصل بما يصدر عن الناي وأثره، فهو يطوّف بنا حول الناي من الخارج، حيث التجلّي الأول في ارتباطه بالسماع.

وقد توقف الدرس بالتحليل والتأمل عند عدد من النصوص مستنبطًا أسرارها ودقائقها الرمزية العرفانية، وكان مما رأيناه في خطاب النابلسي –على سبيل المثال– كيفية الإحالة الخارجيّة لحالة من حالات الوجد الصوفيّة عبر الإهابة بعناصر: **(السماع، والمجلس، والناي)** في تشكيل السياق.

كما رأينا في استعانة خطاب الرومي ببنيتي **(الأمر والاستفهام)** جمعًا بين بنيتين بينهما تضاد في حركة المعنى بين المستوى السطحي والمستوى العميق، وكيف أن حنين الناي إلى عالمه السماوي يحيل إلى الاغتراب الإنساني موضوعًا في إطاره الروحي والصوفي.

وجاء المبحث الثاني عن: **الناي والنفخ**، وهو يتعلّق بما يحدث في الناي، فهو سياق للداخل، حيث يظهر النفخ الإنسانيّ في الناي، فعلاً محاكيًا للنفخ الإلهي الذي وردت مادته في القرآن الكريم، متصلة بالخلق والإحياء، وقد وجد الدرس لهذا السياق حضورًا لافتًا عند النابلسي، بينما اختفى عند الرومي.

ورأينا كيف تآزر سياق السماع بسياق النفخ، كما توصّل الدرس إلى أن في ارتباط الناي بالنفخ ما يردّنا إلى مصطلح «**النَّفَس الرحماني**» عند ابن عربي.

أما المبحث الثالث والأخير فهو بعنوان: **الناي والعشق والطبيعة**، وهو سياق لما يحايث الناي من عوالم تجمع بين الداخل والخارج معًا، فهو يربط بين عالم الناي وعالمي العشق والطبيعة، ومن

خلال المقارنة رأينا أن شعريّة الخطاب عند الرومي استثمرت الأسطقسات الأربعة للطبيعة: (الماء، والنار، والتراب، والهواء) لإنتاج دلالة العشق الإلهي المرموز له بصوت الناي.

كما تبين أن الخطاب النابلسيّ كان أكثر تكثيفًا في تضايفه بين العشق والطبيعة؛ حيث اتخذ من الفراشة التي تحترق رمزًا للذات التي تحرقها نار العشق، ويحضر الناي في هذا السياق بوصفه مثيرًا يشعل هذه النار ويؤججها.

فَرَاشَـــتِي رَأَتِ النُّـــورَ الَّـــذِي ظَهَـــرَا نــورَ الوجــودِ الحقيقــيْ يَخْطَـفُ الْبَصَـرَا
وَهَاجَهَـا الــنَّفْخُ فِــي النَّــايِ الــرَّخِيمِ، وَقَـدْ بَــدَا الْجَمَــالُ مِــنَ الْوَجْــهِ الَّــذِي بَهَــرَا
فَأَلْقَــتِ الــنَّفْسَ مِنْهَــا فِيــهِ فَاحْتَرَقَــتْ فَلَــمْ تُغَــادِرْ لَهَــا عَيْنًــا وَلا أَثَــرَا

وبصفة عامة، فقد رأينا في هذا المبحث كيف ينأى الناي في رمزيته العرفانيّة عن دنياه الأرضيّة، باعتباره محرّكًا فاعلاً له خطره الكونيّ، فهو الباعث الحثيث للعشق في تضايفه مع الطبيعة.

وبعدُ،

فإن التعامل مع الخطاب الشعري الصوفي في تجلياته العرفانيّة لم يكن ليكشف عن أبعاده الرمزيّة إلا بمقاربته بآليّات منهجيّة تعتمد اللغة التي تشكّل هذه الأبعاد أولاً وآخرًا، وقد وجد الدرس في (تحليل الخطاب) بُغيته في جَلاء البصمة التعبيريّة لكل من عبد الغني النابلسي وجلال الدين الرومي في إهابتهما بالناي بشفرته السيميولوجيّة لنشر إشراقاته الإشاريّة والرمزيّة في رحاب الخطاب الصوفي.